

التاريخ: 13/10/2015

العنوان: التجديد هل يناقض الأصالة؟

التجديد هل يناقض الأصالة؟

ينقسم المفكرون في معنى كون الشيء أصيلاً إلى قسمين:

قسم يقول: إن الأصالة هي الإبداع الغير مسبوق بمثل فإن أصل الشيء بدايته ونشأته الأولى.

وهنا يرتبط معنى الأصالة بالتراث والماضي إذ يرتبط بالبعد الزمني، فما كان قديماً أو على شاكلة القديم فهو الأصيل. وقسم آخر يقول: إن الأصالة لحظة إبداع غير مرتبطة بالبعد الزمني "فهي تتجاوز مفهوم الزمن"، وتحمل داخلها "قابلية التجديد والإستمرار لا الإنغلاق".

وثمة جدلٌ بيننا معاصر "الرواديد" حول مفهوم الأصالة في الألحان الرثائية أرى من الضرورة الخوض فيه محاولاً إيجاد مقاربة وسطية لهذا المفهوم مع واقع الألحان الرثائية اليوم.

فأقول والله المستعان:

بناءً على الأصالة الزمنية يواجهنا هذا السؤال:

هل من الصحيح أن كل لحن قديم فهو جيد ويحمل قيمة جمالية ذاتية؟

ويبدو الجواب أن هذا ليس قاعدة مضطردة وثابتة بل هو أمر نسبي فبعض القديم جيد و ذو قيمة جمالية ذاتية والبعض ليس كذلك.

ثم يتبادر هذا السؤال أيضاً:

ما هو مقدار الزمن الذي يجب أن يمر على اللحن حتى نحكم بكونه تراثياً ليُتصف بالأصالة؟

فإذا كان الأصيل من ألحان الرثاء هو اللحن الأول في تاريخ الرثاء الحسيني وما كان على نسقه وشاكلته فإن الألحان التي كانت قبل ٥٠٠ عاماً ليست أصيلة إلا إذا تيقنا أنها على شاكلة وأسس اللحن الرثائي الأول، ودون حصول اليقين بذلك خَرَطَ القتاد كما يقال.

وهنا نصل إلى ذات النتيجة السابقة وهي: إن الأصالة من حيث الزمان نسبية وغير ثابتة فبعض الألحان مر عليها ٥٠ عاماً ونسميها أصيلة وبعضها ٢٠ عاماً وكذلك نصفها بالأصالة.

إن، إن الأصالة بمعنى التراث والماضي الزمني أمر لا قاعدة ثابتة فيه يمكن التمسك بها والرجوع إليها لا من حيث الزمان ولا من حيث كون الألحان على نسق التراث.

كما أن الأصالة بهذا المعنى تعني التقليد والمحاكاة ولا مجال فيها للإبداع ولا التجديد بالشكل الذي يخلق حالة من التنوع والجذب والإستقطاب، وبذلك ستتأثر شعيرة الندب والرثاء سلباً ولن تحافظ على حرارتها وتأثيرها في النفوس إذ ستكون مكرورة جامدة.

ذكرنا أن قسماً من المفكرين يرون أن الأصالة غير مرتبطة بالبعد الزمني إذ يرون أن الأصالة هي صفة الإبداع في الشيء، فالأصيل من الألحان بناءً على هذا الرأي هو ما توفر على الإبداع.

و هذا يعني أن الأصالة هي منهج يقوم على أساس الإنتاج الإبداعي سواء ارتبط بالتراث أم انفصل عنه. ويعني أيضاً أن الأصالة باعتبارها منهجاً فهي مرتبطة بالثقافة ارتباطاً خاصاً و وثيقاً لأن المناهج تستمد قيمتها من القيم التي تولدها الثقافة.

وعلى ضوء هذا التعريف للأصالة فإننا تخلصنا من مشكلة النسبية التي واجهتنا في التعريف الأول، وذلك لأن الأسس الثقافية ثابتة ويمكن الوقوف عليها بشكل دقيق ومحدد، كما يمكن الوقوف على القيم والمبادئ المتولدة عنها.

ويتضح لنا هنا أن الإبداع الذي يشكل جوهر الأصالة يتفاوت قيمة وشكلاً ومضموناً من ثقافة لأخرى، فلا يمكن قولبة الإبداع وتعليبه وتوزيعه كأنموذج وحيد يُقدم للمشتغلين في الإبداع على اختلاف ثقافتهم.

إذن فإن الأصالة في الألحان التراثية الحسينية لها خصوصيات وشروط نابعة من القيم والمبادئ التي تولدها الثقافة الإسلامية.

وسوف أتعرض لخصوصيات الأصالة في ألحان الرثاء بشكل مفصل في القسم الثالث والأخير من هذا المقال بإذن الله تبارك وتعالى.

وهنا نحن أمام نتائج عدة:

أولاً: إن أصالة الألحان التراثية صفة زائدة على شرعيتها، فالأصالة مفهوم لا يرادف الشرعية، فإن الألحان الغير شرعية هي محل رفض قاطع لا يقبل النقاش، أما الأصالة فهي صفة كمال في اللحن المقبول شرعاً، فلو وصفنا لحناً ما بأنه شرعي فليس بالضرورة أن يكون أصيلاً، لكن لو وصفناه بالأصيل فبالضرورة نكون قد فرغنا من كونه شرعياً.

ثانياً: إن الإبداع القائم على المنهج القيمي للثقافة الإسلامية في الألحان ليس على لون وطريقة واحدة فقد تختلف الأساليب الإبداعية سواء في القوالب اللحنية أو المقامات أو الأداءات أو السرعة والبطئ لكنها تحمل صفة الإبداع فكلها تتصف بالأصالة بلا فرق.

ثالثاً: إن اللحن الفاقد للإبداع فاقد للأصالة دون شك، لأن الأصالة كما بينا ليست شيئاً إلا الإبداع القائم على القيم الثقافية للإسلام، فمن يطلب لحناً أصيلاً لا يصح أن يكتفي بكونه مقبولاً شرعاً بل لابد من البحث عن مواصفات إبداعية فيه ضمن الدائرة الشرعية.

رابعاً: ليس كل ما في التراث من الألحان أصيلاً إذ ليس كله أبداعياً، ولهذا ينبغي الإنتقاء في عملية محاكاة التراث أو تثبيت الموروث من الألحان على معايير الإبداع الموجود فيها.

خامساً: إن التجديد هو عصب الأصالة، لأن الأصالة حركة اجتهادية وليست سكوناً خمولياً.

عوامل التأصيل في ألحان الرثاء

إن الأصالة - كما مر - مرتبطة بالثقافة الإسلامية وقيمها ومبادئها بحيث لا يمكن إنتاج ألحان رثائية أصيلة إلا عبر التعلق الخاص والوثيق بقيم ومبادئ الثقافة الإسلامية.

وذكرنا أن مشروعية الألحان الفقهية مرحلة سابقة على عملية التأصيل في اللحن، فلا بد من الفراغ أولاً من مشروعية اللحن قبل عملية تأصيله، فإن المشروعية بمثابة العجينة الصالحة للاستعمال النقية من الشوائب، أما التأصيل فهي عملية تشكيل هذه العجينة تشكيلاً إبداعياً جاذباً ومؤثراً.

ومن هنا فإن من لا يحيط بالمسائل الفقهية الخاصة بهذا الشأن ومذاقاته العرفية فإنه لا يملك أن يقدم لحناً أصيلاً وفق القيم والمبادئ الإسلامية وإن بدا اللحن جميلاً ومتناسقاً، فإن الجمال لا يعني المشروعية بالضرورة كما لا يعني الأصالة بمواصفاتها الإسلامية بالضرورة أيضاً.

وللتأصيل في ألحان الرثاء عوامل ومسببات لا بد من أن يتوفر عليها الرادود وهي:

أولاً: العلاقة العقائدية بأهل البيت عليهم السلام.

حيث إن طبيعة العلاقة بهم عليهم السلام تحدد طبيعة التعامل معهم، فعندما تكون العلاقة مبنية على الفهم العقائدي لمقامهم وشأنهم كوسائل فيض الله وحججه على خلقه وأن رضاهم سخطهم وسخطهم سخطه وأنهم لا ينطقون عن الهوى وأنهم أهل بيت أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.. عندما تكون العلاقة معهم كذلك فإن الحس والذوق لا يخرج منه تجاههم إلا الجميل المذهب النقي والمبدع.

على أن العلاقة العقائدية لها زوايا مختلفة فبعض يتعلق بهم عليهم السلام من زاوية جلالية "الخوف والرجاء" فتبدوا ألحانه غارقة في أحاسيس الرهبة والترجي والتوسل، وبعض يتعلق بهم عليهم السلام من زاوية جمالية "القداسة والمحبة" فتبدوا ألحانه مشحونة بأحاسيس الحزن والمحبة والشوق والتودد والغضب والثورة والرفض وهكذا.

والألحان الناتجة عن كلا العلاقتين أصيلة، فالأصالة في ألحان الرثاء والندب لا تعني الحزن فقط فإن معنى الندب هو الحزن وذكر المحاسن.

ثانياً: نقاء الروح.

وذلك لأن ما يصدر عن روح صافية نقية مشحونة بحب الله تعالى وأهل بيته عليهم السلام مشفقة على الخلق منقطعة عن الدنيا والهوى فإن نصيبه من الجودة والجمال والتأثير في النفوس كبير وافر.

وإن كدورة الروح وظلمانيته بالمعاصي والتعلقات الإعتبارية الدنيوية قد يوقع في الإساءة للمقدس ويصد عن الغاية، فيخرج عن مثل هذه الروح ما يهين مقام الأولياء ويصب في خدمة الأعداء ويكون الهدف منه خدمة الذات وطلب الدنيا.

ثالثاً: التوسل لله تعالى بأهل بيت العصمة.

فإن قدرة الرادود ومهارته الفنية مهما عظمت فهي عرضة للزلل والإخفاق، فهو بحاجة مستمرة للتوسل بهم عليهم السلام وطلب نظرهم الرحيمة ولطفهم الخفي ورعايتهم الدائمة، فهم باب الله الذي منه يؤتى وما خاب من تمسك بهم.

رابعاً: الإحاطة الفنية.

وذلك للوقوف على أسرار الجمال والتأثير والإبداع في الألحان، لا بمعنى التوغل والإستغراق في الفن فإن ذلك قد يؤثر على الروح ويذهب بصفاتها، بل بمعنى الإطلاع المعلوماتي والعملية على ضوابط تصنيع الألحان وتركيبها وعناصر تأثيرها ونجاحها على قدر الحاجة.

خامساً: الوقوف على المذاق العرفي.

وهو أمر له أثر كبير في عملية تأصيل ألحان الرثاء، حيث إن الغرض من البحث عن الأصالة في اللحن ليس هو من أجل الأصالة نفسها فالأصالة أيضاً وسيلة يراد من خلالها الوصول إلى التأثير والتأثر، فإذا لم يتم الوقوف على مذاق العرف في ألحان الرثاء فسوف تفقد قدرتها على التأثير.

ولأن المذاقات مختلفة من عرف لآخر فعلى الرواديد أن تكون لهم إحاطة بمختلف الأعراف التي يشاركون فيها فإن مفهوم الأصالة من ناحية عنصر الجمال في اللحن متفاوت من عرف لآخر.

والحمد لله رب العالمين.